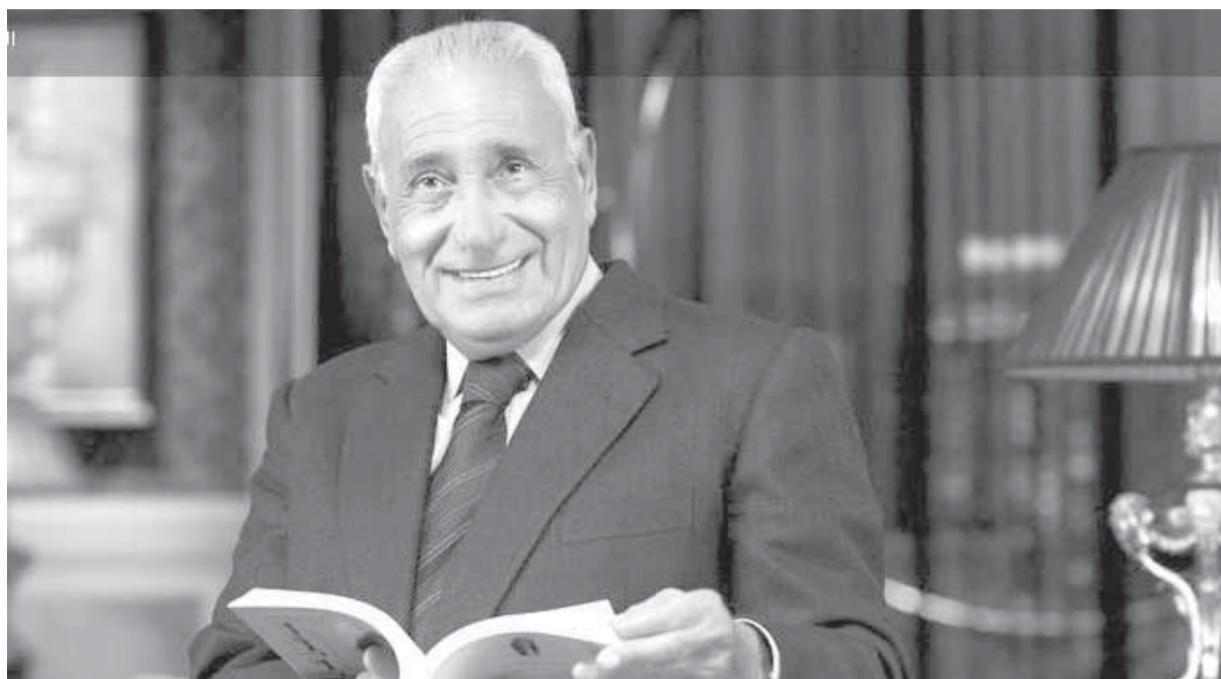


رجل هيكل فانتشروا!
ما تهياً لهيكل زاد من معرفته فهل
استفاد سواه مما تهياً لفهم كما فعل؟!

إسماعيل مروة

ها هو محمد حسين هيكل قد ترجل للمرة الأخيرة فانتشروا في الأرض، قولوا فيه ما تشاوون، وقولوا لأنفسكم ما تشاوون، وقولوا لنا ما تشاوون !! الرجل الذي جعل الإعلام مهمًا في زماننا، فكان أعمق وأكثر أثراً من كل من عرفناه ومن لم نعرف. الرجل الذي درس الإنكليزية، ومنها إلى الإعلام فكان مراسلاً حربياً من الجبهات في حرب فلسطين، ليتربيع على عرش الأهرام، وليصبح نديم عبد الناصر وظله وملازمه، الرجل الذي لم يخرج أحدهم في وجهه ليسكنه لأنه ليس أكاديمياً، ولم يدرس الإعلام وإنما اللغة الإنكليزية، الرجل الذي بقي حتى آخر أيامه يحلل ويتكلم ويستخلص الدروس والعبر من التاريخ القديم، والزمن الذي عاشه، والزمن الذي نحن فيه، هو هيكل الذي لم يهدأ يوماً، عندما كان بصيقاًً وملازماً للرئيس عبد الناصر، وحتى صار ملغى عند السادات، وحتى صار في كل صدق من الدنيا.



وحل ما رأيته حديث ذكريات يشبه أحاديث الجدات، لا علاقة
به بالواقع، ولا يحمل تواريخ دقيقة ولا وثائق ولا أسماء
 دقيقة، إلا أن محمد حسنين هيكل، وفي كل إطلااته،
 سواء كان حماه أو ملقياً كانت الأوراق أمامه، فإن أورد من
 صحيفية قرأها وعرضها عليك مظللة، وإن كان يتحدث عن أمر
 يذكر التاریخ والمكان وال مجریات، ولا يعتمد بأي حال على
 ذاكته، وفي أكثر من مرة كان هيكل يعدم إلى تصحیح معلومة
 ووردت منقصة في حلقة سابقة، وربما كان هذا المنهج وراء عدم
 ارتياح جهات له ولأحادیثه، ومن ثم ترجم عدم الارتياح بتلهيل
 لوحده!

هیکل و عالم معرفتی

هيلك وعالم معرفته

يحاول كثيرون انتقاد مهارات هيلك، ويقولون بأن ما
له تهيا له لو تهيا لغيره من الصحفين لأبدع، وهذا صحيح في
جانب آخر، فهو اللصيق بعد الناصر، أتيح
له أن يسمع ويجلس مباشرة مع خروتشوف وأيزنهاور
وغاندي وتيتو ونهره وسواهم من عمالة القطبين، ودول
عدم الانحياز من بادونغ وحتى رحيل عبد الناصر، وكان
يامكان أي صحفي آخر أن يستفيد من هذه العلاقات، وأن
يركن إلى الهدوء والزاوية التي يبرز من خلالها طاقاته
ومعارفه، ولكن هيلك لم يركن إلى ذلك، وإنما شكل عالم
معروفة بجهد كبير مستغلًا كل فرصة أتيحت له، فها هو
يحضر عام ١٩٥٥ مؤتمرًا للأقطاب، ويعقد علاقات مع العالم
الإعلامي، ويحضر ندوات ويقدم ندوات في جامعات أميركية
عام ١٩٦٠ من كولومبيا، ويبقى هناك مدة تعادل إقامة
الأستاذ الزائر أكاديميًّا، ثم يعقد لقاءات تفاعلية تبادلية مع
أهم رؤساء تحرير الصحف العالمية مثل «الصنداي تايمز»
و«التايمز» كما يعقد علاقات ولقاءات مع قادات عالمية مثل
لندرية مالرو، كما يلتقي ويتحاور مع كبار الشخصيات
العالمية القريبة من مصادر القرار مثل بيير سالينجر المقرب
من جون كينيدي، والذي يبقى محافظًا على مكانته.
وعتقد كذلك علاقات مع كبريات دور النشر العالمية التي تقدم
 لهم الدراسات التي تتبع أكثر الكتب في العالم، ونظراً لمكانة
هيلك، وبناء على تحكيم تلك الدور قامت بتبني دراساته
ونشرها في العالم، وخبرة هيلك وقدرته جعلته يقدم
دراسات ذات أهمية كبيرة باللغة الإنكليزية، ومن ثم تمت
ترجمتها إلى العربية، ولم تكن تلك الدور لتقوم بطباعة أعمال
هيلك لو لم تجد فيها ما هو مفيد وكبير الفائدة، ويختلف عمـا
كتبه الكتاب الغربيون، ولعل تلك الدور العالمية استطاعت
أن تستفيد من ثائق هيلك ومعارفه وعلاقاته وذكرياته.
واستمرار هيلك بعد رحيل عبد الناصر لمدة وصلت إلى قرابة

الجماهيري المستهدفة في ممارسته لمهنة الصحافة ورئاسة التحرير، ومراكز التوثيق والمتاحف تحتفظ بعده من أعداد الأهرام التي تظهر براعة هيكل الصحافية، وخاصة في تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي، ولو لم يكن هيكل بهذه البراعة لما استطاع أن يؤسس لراحل لاحقة وعميقة.

هيكل والصحافة الإستراتيجية

الدعوات اليوم تؤكد ضرورة إنشاء مراكز بحث إستراتيجية في كل ميدان، ولست هنا في صدد الدفاع عن هيكل أو الإشادة به، فمثلاً لا يحتاج شهادة هنا أو هناك، فقد أمضى حياته وopic حتى أخريات أيامه حاضر الذهن متوقعاً، ومرجعاً في قضيابها المهمة، وكلما ادلهت الخطوب بفتح الشاشات لنجدها تستتجد بهيكل ومعرفته وخبرته، ومن يذكر وينصف، فإن الإعلام هرع إليه في الحرب العراقية الإيرانية تثيراً، وكانت موافقه متباينة، وفي الحرب على العراق كان هيكل منزعجاً، وفي المرحلة اللاحقة قدم سلسلة متناولة من الأحاديث لعلها تجذب، وتلك الأحاديث قرعت الكثير من النواقيس لخطر مقابل داهم ولكن أحداً لم يسمع!! وفي بداية ما عرف بالربيع العربي عاد الإعلام إلى خبرته، ومن يذكر فسيجد أن كل ما تتوقعه هيكل قد حدث، ابتداء من ركوب الإخوان موجة هذه الحركات، وحضر من أن الأوطان هي المهددة، وعلى الرغم من خلافه مع السلطات المصرية الذي بدأ مع رحيل عبد الناصر، إلا أن هيكل كان هادئاً وموضوعياً، ولم يقف موقفاً مختلفاً من السلطات، بل قدم روئي متباينة للغاية لم يخرج عنها مسار الأحداث فيما بعد... وعندما تحاورت مع صديق عززت ذلك إلى أن هيكل ليس شخصاً مغرواً، فهو لا يجرّ تذكرياته ويستغل خبراته، وإنما يعتمد على مراكز أبحاث تابعة له، وهو يسألهم آراءه من دراسات وقراءات، ويحصل إلى استنتاجات منطقية بناء على ما يتلقى في دريه من معلومات موضوعة... وهذا ليس مثابة عند هيكل، فهو شخص مؤسساتي، أما ححة في تناول المباحثة المبنية لافتقارها إلى

حربياً في فلسطين أثناء حرب فلسطين، ليلمع نجمه فيما بعد، ويصبح لصيقاً بالحدث مهما كان هذا الحدث حاراً وخطيراً، ومن ثم استطاع هيكل أن يكرس ذاته وحضوره ونهرجه الإعلامي، بل يشكلمدرسة إعلامية عربية وإن كانت هيكلية ولولادة والنشأة والخيار، ولم يستطع خصوم محمد حسنين هيكل من أبناء مهنته أن يشوشوا عليه، وإن منحوا موهب لا تنكر، من أمثل مصطفى وعلى أمين، وفي رواية (ستة أولى حب) يحاول أمين التشويش على هيكل، بل قدما مجموعة من الشخصيات التي تعرّض بالصهاينة الانتهازي الذي بريانه في هيكل، وقد حاولا التشكيك بهيكل وسيرورته وخبراته، لكن كل ما قام به خصومه ذهب أدراج الرياح وبقي هيكل القيمة التي لا تنكر، والموهبة المتميزة، والرؤوية الإعلامية المتكاملة التي حملها، بينما كان الآخرون مجرد صحافيين يكتبون مما يعن لهم من دون أن يرقى أحدهم إلى حدود المهنة، لذلك يبقى اسم هيكل أكبر من كل الأسماء التي رافقته وشاركته في المرحلة والقرب من عبد الناصر ورجال الثورة، وهو على خلاف غيره، ومن دون فرض من الدولة وعبد الناصر، سعي مالكو الأهرام إليه، فطلبوه منه أن يتولى رئاسة تحرير جريدة الأهرام، أم الصحف العربية التي أسسها السوريون لمهاجرون في مصر، فوقع مع المالكين عقد رئاسة التحرير عام ١٩٥٦ ليياشر عمله رئيساً لتحرير الأهرام من ١٩٥٧، وكان التوقيع مع بشارة نقلاصاصاح الحصة الأكبر في ملكية الأهرام، ولم يكن مفروضاً من الثورة ورجالها.

هيكل الكاتب الصحفي

مم يكن هيكل صحافياً عادياً، بل كان صحافياً كاتباً، فما ملكه من قدرة وبراعة جعلت فكره مؤسساً لمرحلة ما بعد، ولو كان هيكل صحي سلطة وثورة كما أشعاعها عنه، وكما حاولوا وسمه لانته في أيلول مع وفاة عبد الناصر، لكن الرؤوية البعيدة جعلته مختلفاً، وكثيرون من يرددون اسم هيكل

كتاب الأحكام المدنية

عنها مسار الأحداث فيما بعد... وعندما تحاورت مع صديق عزروت ذلك إلى أن هيكل ليس شخصاً مفروضاً، فهو لا يجتر ذكرياته ويستغل خبراته، وإنما يعتمد على مراكز أبحاث تابعة له، وهو يسأله آراءه من دراسات وقراءات، ويصل إلى استنتاجات مبنية على ما يتوافر لديه من معلومات موثقة... وهذا ليس مثلاً عندي، فهو شخص مؤسساتي، وهو أول صحفي في تاريخ الصحافة العربية لا ينظر إلى الصحافة نظرة فردية، ليوسّع صلاحياته وهوامشه، ولم يكتف بإصدار دوريات وصحف وكتب، بل عمل قبل ثمانين وعشرين عاماً إلى تأسيس أول مركز للدراسات والبحوث الاستراتيجية، حمل اسم مركز الأهرام، وقد استطاع هيكل من خلال علاقته المميزة ببعد الناشر من أجل التأسيس لصحافة علمية بحثية، فكان مركز الأهرام التابع للمؤسسة العربية، وليس التابع لهيكل الشخص، هذا المركز الذي ما زال إلى اليوم يحتضن الخبرات العلمية والأكاديمية، ويقدم دراسات معمقة استراتيجية، وهو الوحيد الذي يقتسم إلى إقسام متخصص، فدراسات عربية وأفريقية وأميركية وما شابهه، وهو المصدر الإعلامي الوحيد الذي خرج من الإعلام التقليدي متخصصاً حقاً في الشؤون الإسلامية والإيرانية العربية والآياض العربية، ومختلف التخصصات التي رقد بها الإعلام بقمات كبيرة، وكل هؤلاء لم يكونوا يخرجوا بهذا التخصص ولو تأسس هيكل ١٩٦٨ لمركز الأهرام، ومن ثم تأسسه لمركز عدة، وهذه الرؤية الاستراتيجية لهيكل أراد منها أن يعطي الصحافة مكانتها التي تستحقها، وأن يحولها من كلام جرايد إلى دراسات مؤسسة تلمس خطوطها اليوم من خلال ما نسمع ونقرأ من مراكز غيرها نتفقد هنا !!

يم يكن هيكل صحافياً عاديّاً، بل كان صحافياً كاتباً، فما ملكه من قدرة وبراعة جعلت فكره مؤسساً لمرحلة ما بعد، ولو كان هيكل صحفى سلطنة وثورة كما أشاعوا عنه، وكما حاولوا وسمه لانتهى في أيلول مع وفاة عبد الناصر، لكن الرؤية البعيدة جعلته مختلفاً، وكثيرون من يرددون اسم هيكل ويكتفون به ويمتدحونه، يقولون إن هيكل بعد اعتزاله جنح لكن شيخ الصحافة العربية، الكاتب أولًا، والمتّرجم ثانياً كان ذلك وضع في حسبانه منذ البداية نجاحاً يقوم على الاختلاف، فاستفاد من الصحافة والسياسة ووضع منهجاً محدداً، لكنه أن صدر له أول كتاب عام ١٩٥٨ «العقد النفسيّة التي تحكم الشرق الأوسط» وبهذا الكتاب بدأ سلسلة كتبه التي لم تتوقف إلا بمرضه ورحيله، وعنوان الكتاب موضوعه يحمل دلالة وهيكل، فمنذ البداية أسس لنفسه الكتابة النقية السياسية التحليلية، وذلك في وقت مبكر جداً من رحلته، قبل أن يكون مستفيداً من علاقاته بزعماء العالم وقيادة مصر، وربما كانت هذه الرؤية هي التي أهلته ليكون أكثر قريباً من عبد الناصر ورجال الثورة، ويحمد عبد الناصر خياره هذا، فهو لم يختار لقرب وهو، وإنما انتقى من المئات الذين يحيطون به الرجل الأكثر حضوراً ورؤوية وعمقاً، فكان له كما المتنبي لسيف الدولة.. والحق يقضى بأن يقال بأن هيكل المكانة الأرفع، والدور الأعظم في تعزيز مكانة الثورة وعبد الناصر، ولو لم يكن هيكل موجوداً لكان لأمر مختلفاً للغاية، ودوره الرفيع هذا يؤكّد نجاحه، فقد حاد التثنية والتقطّع في داستاته، كما أحاد التحدث إلى

اختلاف حوله الكثيرون، هناك من قال: إن ما تهياً له يهيكـل هو الذي جعله عظيـماً وبهذه المكانـة، وما تهـيـأ لهـ لـو تـهـيـأ لـسوـاهـ لـوـصـلـ إـلـىـ الـكـثـيرـ،ـ وـلـكـنـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ يـنـظـلـقـونـ مـنـ مـوـقـعـ الـحـسـدـ الـأـمـ يـعـرـفـواـ أـعـدـاـ كـبـيـراـ قـبـرـيـاـ فـيـ زـمانـهـ؛ـ أـولـمـ بـرـواـ أـنـ كـثـيـرـنـ عـبـرـ الـأـزـمـانـ قـبـرـيـاـ مـنـ رـؤـسـاءـ لـيـقـلـونـ عـنـ النـاسـ عـنـ عـبـدـ النـاصـرـ،ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـمـكـنـتـواـ مـنـ الـوصـولـ إـلـىـ عـشـرـ مـاـ وـصـلـ إـلـىـ هـيـكـلـ؛ـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ أـنـ يـعـرـفـواـ بـعـقـرـيـةـ الرـجـلـ الـذـيـ اـقـتـصـ فـرـصـةـ كـانـتـ لـهـ وـلـغـيـرـهـ،ـ لـكـنـهـ سـخـرـهاـ بـشـكـلـ عـقـرـيـ فـخـرـ مـنـهـ مـارـداـ؛ـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ أـنـ يـعـتـرـفـواـ بـوـفـاءـ هـيـكـلـ الـذـيـ اـعـاشـ بـعـدـ رـئـيـسـهـ أـكـثـرـ مـنـ خـمـسـةـ عـقـودـ،ـ وـبـقـيـ عـلـىـ الـزـمـنـ وـفـيـاـ لـذـاكـ الرـئـيـسـ،ـ وـلـمـ يـسـمـعـ لـنـفـسـهـ أـنـ تـلـعـلـ عـلـيـهـ؛ـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ أـنـ يـوـازـنـواـ بـيـنـ هـيـكـلـ وـبـيـنـ مـنـ كـتـبـ فـيـ زـمـنـ عـبـدـ النـاصـرـ(عـوـدـةـ الرـوـحـ)ـ وـكـتـبـ بـعـدـ وـفـاتـهـ(عـوـدـةـ الـوعـيـ)ـ وـبـيـنـ هـيـكـلـ وـمـنـ مـجـدـ الـثـورـةـ وـرـئـيـسـهـ فـيـ أـثـنـاثـ وـجـوـهـهـ،ـ وـمـنـ ثـمـ قـامـ بـنـهـشـهـاـعـنـدـهـاـ رـحلـ زـعـيمـهـاـ وـتـغـيـرـتـ الـمـاعـابـيـرـ؛ـ لـسـتـ مـنـ يـمـجـدـونـ الـأـشـخـاصـ بـيـوـجـودـهـمـ أـوـ بـعـدـ رـحـيلـهـمـ،ـ لـكـنـيـ أـرـفـضـ أـنـ يـمـجـدـ أـحـدـهـمـ شـخـصـاـ،ـ وـبـيـنـ يـبـتـعـدـ عـنـهـ أـوـ يـبـعـدـ عـنـ مـنـصـبـهـ بـيـدـاـ عـلـيـةـ النـهـشـ،ـ أـوـ بـعـدـ أـنـ يـرـحـلـ الـشـخـصـ يـكـتـشـفـ جـمـلـةـ أـلـغـاـطـهـ الـتـيـ كـانـتـ مـسـتـورـةـ وـخـافـيـةـ تـحـتـ عـبـاءـةـ الـمـصلـحةـ؛ـ

كم نـحنـ الـيـوـمـ وـفيـ عـاصـفـةـ الـرـبـيعـ الـقـاتـلـ لـهـيـكـلـ وـأـمـثالـهـ وـتـلـامـذـتـهـ،ـ كـمـ نـحنـ بـحـاجـةـ لـتـنـعـلـ أـنـ الـأـوـطـانـ مـصـالـحـهـ فـوـقـ مـصـالـحـ الـأـشـخـاصـ؛ـ كـمـ نـحنـ بـحـاجـةـ خـاصـهـ مـنـ قـدـمـتـهـ السـلـطـاتـ،ـ وـظـنـ نـفـسـهـ بـمـكـانـهـ هـيـكـلـ،ـ ثـمـ يـكـتـشـفـ وـتـكـتـشـفـ أـنـهـ كـانـ مـجـرـدـ مـتـسـولـ عـلـىـ بـابـ السـلـطـةـ،ـ لـمـ يـقـنـعـ وـلـمـ يـقـنـعـ،ـ لـاـ يـسـتـحـقـ أـنـ يـكـونـ مـجـرـدـ بـوـبـ،ـ وـكـانـ الـبـوقـ بـصـفـاتـ الـسـلـبـيـةـ أـكـبـرـ مـنـهـ؛ـ كـمـ نـحنـ بـحـاجـةـ لـقـرـاءـهـ هـيـكـلـ وـحـيـاتـهـ وـأـرـائـهـ،ـ لـنـعـرـفـ ذـاكـ الـشـخـصـ الـذـيـ اـسـتـمـرـ حـيـاتـهـ وـمـعـارـفـهـ وـعـاـشـ مـلـكاـ عـلـىـ عـرـشـ الصـحـافـةـ الـعـرـبـيـةـ،ـ لـكـنـتـاـ لـمـ نـجـدـ يـوـمـاـ بـيـعـ رـأـيـهـ وـبـيـجـنـ بـهـ إـلـىـ مـنـ يـدـفـعـ لـهـ؛ـ كـمـ نـحنـ بـحـاجـةـ إـلـىـ هـيـكـلـ لـتـنـعـلـ مـنـهـ أـصـولـ الـاـنـتـقـادـ وـأـصـولـ الـحـبـ؛ـ

كـمـ تـغـنـيـ بـهـ أـشـخـاصـ،ـ لـكـنـهـ عـنـدـمـاـ لـمـ يـنـحـزـ إـلـىـ آرـائـهـ سـفـهـوـاـ

آخر ما قرأناه لهيكل كان عظيماً وعلمياً، حذرنا من الحرب على سوريا، ومن أن الحرب يراد بها سلب سورية لأنها جاذبة ب موقعها وتاريخها، ودعا السوريين إلى التحاور فيما بينهم، ورفض أي شرط للحوار، وكان أكثر من واضح عندما قال: كيف تتحاور مع العدو الإسرائيلي ولا تتحاور فيما يبنينا؟!

هيكل الفكير إعلامياً، القادر في كل لحظة على توليد الجديد، البراغماتي الذي يقدم الحال كما هي بظاهرتها، لكنه في الوقت نفسه لا يعارض مظلقاته التي أمن بها والتي صنعته.. هيكل الذي لا يُشق له غبار، قد يكون العربي الوحيد في مصر والعالم العربي الذي وصل أعلى قمة الهرم، ولم يحرق في يوم من الأيام درجات السلم الذي صعد عليه! قد لا يكون ذلك برأي الكثيرين من باب الوفاء، بل هو من باب الذكاء، لأن الذي يحرق درجات السلم الذي صعده يحرق نفسه وتاريخه ومصاديقه! ولو فعل هيكل ذلك فمن سيرken إلى كتاباته وأحاديثه عن سنوات الغضب؟ من سيغتنى بالانفجار؟

هيكل هو التاريخ الذي استطاع أن يعطي للإعلام نكهة مختلفة، فأعطاه وظيفته التي تلقي به، حوله من إخبار آني ولحظي إلى تحليل ورؤيا، ولم يكن لهيكل أن يفعل هذا إلا لأنه عشق الإعلام عشقاًاماً، فهو لم يدرس الإعلام أكاديمياً. فقد تخرج في اللغة الإنكليزية، لكنه سخر اختصاصه ورؤيته لعشقة الصحفي، فأضاف للصحافة كما أعطته، والدليل على عشق هيكل للصحافة أنه بدأ حياته العملية صحافياً، وليس صحافة مطبعة ومحكمة.. فقد اختار ذاته أن يكون مهلاً

سعى مالكو الأهرام إليه ولم تفرضه السلطة رئيس
للتدبر لأنها هنكار المكانة والخفة والكبش



هكل المفكر في استراتيجية الاعلام والقادر على خلق حديد دوماً